

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٢٤ - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

النامية السليمة من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

ألم يؤول بالنفس - في مدرسة الألم - إلى خروجها مهبية نقية ؟
إن في الانسان « خليفة وخالقاً » في الانسان شيء هو مادة وطين
ووحل ، لا شعوره ، فضاء ، وفي الانسان شيء هو خالق مبدع ،
ونقاش ، بهجة فنان وصلابة ومطرقة ، أأدركتم هذه المقارنة ؟
ألا تزال شغفتكم تذهب إلى ما في الانسان من مادة يبنى سحقه
وحرقة في النار حتى يتطهر ، وإلى كل ما يجب عليه أن يتالم
بالضرورة ؟

وشغفتنا هل ندرون موقعها ! إنها شفقة علينا حين تقاقل
شغفتكم كما تقاقل كل ظاهرة من ظواهر الضعف والجبن ،
وهكذا : شفقة ضد شفقة

ويرى نيتشه أن المذهب الديموقراطي علامة من علامات
الانحطاط ، لأنه مهما تباعدت أصوله وتبدلت مناهجه متفق مع
المذهب الديني ، ففي الشريعة المسيحية وفي ديانة الألم الانساني
يتمثل ما يتمثل في مذهب المساواة . . . مقت الضعيف للقوى ،
وجنوح قوى إلى حياة لا ألم فيها . إن المسيحية تجعل الناس
متساوين أ كفاء أمام الله ، وتعدم بسعادة كاملة في الحياة الثانية ،
كذلك الديموقراطية جعلت الناس متساوين أ كفاء أمام
الشريعة والحق ، وعملت على تحقيق سعادتهم في هذه الدار ،
ورجت أن تخلق مجتمعاً عوت فيه التفاوت ويكون أهله في الحق
سواء ؛ لا يتمتع أحدهم بما لا يتمتع به آخر . حيث لا أمر ولا
طاعة ، ولا استبداد ولا استثناء ، ولا سيادة ولا عبودية ،
ولا غنى ولا فقر

هذا هو المثل الذي تنهض اليه الديموقراطية ، ويدعو اليه
أصحابها على اختلاف مللهم ومحلهم . . . كلهم يعملون على رفض
كل سلطة ذاتية ، ليملكوا لأنفسهم كل امتياز . وكلهم يؤمنون
بأن كل فرد بقدر بل يبنى له أن يجد سعادته الخاصة في سعادة
المجتمع بأسره ، وهذه السعادة الاجتماعية يمكن تحقيقها باشفاق
كل فرد على المجتمع ، وبالحجة العامة السائدة . هذه الأفكار
غرس في عقول أبناء الحاضر غرساً متيناً ، حتى أصبح لا يقوم
- في أوروبا - رجال تقوى فيهم روح السلطة والزعامة . ولن
تجد في عصرنا هذا من يمثل روح نابليون الذي كان ينضوي
تحت لوائه الألوف ، يمشي فيمشون لا يسألونه أين عشي ، وهؤلاء
من بأيديهم الحكومة اليوم لا يملكون من الحكم إلا قليلاً ،
لأن شريعة العبيد رافعة رأسها في كل مكان ، فهم يستمدون

إن انتشار مذهب الشفقة - في هذا الجيل - دليل على
أن الانسان أصبح يزداد خوفه من الألم . أصبح متراحياً ، مخنثاً
يخشى من كل ما يكره عليه طمأنينته ووجوده ، لا يحمل القرار
من الألم وحده ، بل لا يستطيع أن يتصور فكرة الألم عند
الآخرين ، حتى لا يقدر أن يؤلم الغير عند ما يطلب العدل منه
ذلك باسم العدل . الرحيم ببسط شفقته حتى على المجرمين والمسيئين
« وقريباً يأتي ذلك اليوم الذي يتراخي فيه المجتمع الانساني ويقعد
عن معاقبة المجرم الذي يضره . لماذا يعاقب المجرم ؟ إن المعاقبة
يرى فيها ضرباً من ضرر الجور . فكرة القصاص وضرورة
القصاص تسوءه . أليس في إقصاء المجرم وغل يديه عن عمل السوء
ما يعني ؟ فلماذا القصاص إذن ؟ إن القصاص يضئ . أما المثل الأعلى
الذي يطلبه « وحش القطيع » فهو جزء ضئيل من السعادة
الحقيقية لكل إنسان ، يرافقه شيء ضئيل من الألم . إن الشقاء
- عندهم - شيء يجب محقه

إن نيتشه - في هذا الفصل وهو خبر فصوله - يعتقد
أن الجبن والخوف من الألم هما من الصنار والحفار يمكن أن
الألم هو في الحق معلم الانسانية وهو الذي يحقق أحسن نماذج
شريعة . « أنتم تريدون سحق الألم ونحن نريد أن تكون الحياة
أكثر قسوة وأشد رداءة . إن الكائن السامي الذي تفهمونه ،
نرى فيه « غاية » ولا نرى فيه « نهاية » . نرى فيه مرحلة يبدو
الانسان من ورائها شيئاً حقيراً مزرورياً حتى يدرك آخر هذه ،
يلي في مدرسة الألم الكبير ، في مدرسة هذا المعلم القاسي يتم
الانسان مراحل تطوره ، أليس التضييق على هذه النفس
الساقطة تحت أعباء الشقاء يزيد بها قوة وصلابة ! أليست هذه
الرجفة التي تقتلبها بازاء الحوادث الكبرى تزيد قوة احتمالها
وصبرها وثباتها وتحويل المصائب إلى دروس مفيدة . كل هذا

بمبدأ : خلقت المرأة للحب والطاعة ، وويل لها إذا ستم الرجل من ظفره عليها وألنى أن هذه المنحة حقيرة بالنسبة إليه ، وركض يسى وراء غرهام جديد . يبنى للرجل أن يحكم وأن يحرس . يجب عليه أن يكون قادراً على أن يحيا حياتين ، ليحقق سعادته لنفسه ، وسعادة من وقفت عليه رجاءها . ولكن تصاكه إذا ظل تحت أنقال هذا العمل ، وإذا أدرك حبّه وهجز عن اضرام نار هذا الحب ، فإن هذا الحب ليحور بنفسك ، وتقلب المرأة به عليه ، حتى لا ترى فيه إلا موضع ازدراء واحتقار

ولكن جيلنا هذا لن يقبل هذه الآراء . . . فالجيل الذي قدس العبد يجرب أن يؤله المرأة . . . لا يرى في المرأة عنصراً سامياً يستطيع أن يساعد الانسانية في تقدسها . الرجل وحده يتعلق عليه ذلك لأنه السيد ، وهو السيد ذو القوة الراجحة والمقل الأرجح والقلب الأمثل والارادة الأشد نفاذاً . والمرأة قد تكون نبهة ، ذكية تضارع الرجل نبهة وذكاء ، تفهم المسائل وتفصل أهيات الأمور الدقيقة وتحاكم وتجادل ولكن طبيعتها أقل عمقا وأقل غنى من طبيعة الرجل . لأنها تبقى دائماً طافية على سطوح الأشياء . إنها شيء لا يذكر . . . إنها مسكينة مراهقة بنفسها

يقول زرادشت « يعلم الرجل للحرب ، والمرأة لتسليه المحارب . . . وما دون ذلك فهو جنون » ليست المرأة صنماً وإنجيل هي ائمة سرية العطب لكنها ثمينة وقد تكون خطرة . هي رقة في طبع الرجل . تفقدو خطرة مرعبة حين يضرعها الهوى والحب والبفض ، لأن طبيعتها لا تزال أكثر احتواء من طبيعة الرجل على وحشية الغرائز الأولى . ففيها رقة ملمس الهرة وقظاعة مغالب الثمرة ، فيها طبيعة نائمة نائرة ، وأهواء جامحة لا تعرف منطقاً ، ورغاب قلق . . . وكل هذا يجعل المرأة فقيرة إلى سيد يكبح جاحها ويقودها ويميت فيها جنونها ، حتى إذا استشمرت الرجل أمست رقيقة ناعمة بفضل طبيعتها وزينتها وتبرجها وفضيلتها اللايسة ألف ثوب . فيعرو - إذ ذاك - قلب سيدها الاشفاق عليها ، الاشفاق الكثير لأنها أكثر عرضة للألم . إنها مفتقرة إلى حبه ، وقد قضى عليها بأن تكون أقل الخلائق وهما ان نيتشه ينقم على المرأة التي تريدان تتحرر من قيودها ، وتهجر احترامها للرجل وترجم بأنها قرينة مساوية ، تريدان تدخل معه فيما تطلب الحياة من نضال . ان نيتشه يبغض النساء اللواتي يمشين في صفوف الرجال ، لأنهن يفقدن تأثيرهن ونفوذهن

الحكم من هذه الشريعة ، لا يجيدون عنها ولا يجدون عنها مصرفاً ، فهم خادمو هذا البلد ، هم الجلادون فيه ، وهم منفذو القانون (١)

وقد بحث نيتشه علاقة الرجل والمرأة ، وهو يرى أن المرأة ليس لها حق المساواة مع الرجل ، دل على ذلك الحب القوي تنغمس في سماته الكائنات . فوظيفة الحب - عند الرجل - غيرها - عند المرأة ، ومكافة الحب عند المرأة غيرها عند الرجل . فالحب عند الرجل إنسان هو إلا حادث بسيط أو غريزة ضئيلة . أما الغريزة النقية فيه فهي غريزة القوة ، هذه الغريزة التي تدفعه إلى بسط سلطانه إلى أقصى ما يقدر عليه . ان مناضلة القوى الطبيعية والقوى البشرية في سبيل تحقيق شخصيته هي ما يتطلب منه عصره وجهوده . فإذا أسلم نفسه إلى الحب ، وهب حياته وأنكاره للمرأة التي يهواها يصبح عبداً مقهوراً وجباناً ذليلاً ، تسليخ عنه الرجولة الحقة والحب الحق

يقول زرادشت « كل ما في حياة المرأة هو لنز ، وكل ما في المرأة له حل واحد هو التوليد » فالحب إذن هو أبرز ما في حياة المرأة ، وإنما مجدها وشرفها يدفانها إلى أن تمتل دور « الأولى » في الحب ، وأن تهب كيانها كله جسداً وروحاً للرجل الذي تصطفيه ، وأن تفتش عن سعادتها في الانسلاخ عن ارادتها الخاصة . يقول زرادشت : إن سعادة الرجل « أنا أريد » وسعادة المرأة « هو يريد » إن المرأة التي تحب يبنى لها أن تسلم نفسها إلى الرجل الذي يجب عليه أن يتقبل هذه المنحة . . . هذه هي شريعة الحب التي يجعل بين الرجل والمرأة حاجزاً حائلاً ورفقاً

(١) ولعل نيتشه صدق في نبوءته هذه ، فقد علت الثقة على شريعة السيد بعد أن تزعزعت نفعاتها ، وخابت تماثيلها أيماناً خيبة ، فملت القوضى حيث استأثرت الديمقراطية ، وزاد الشعب حيث استغرق الناس في الحرية ، فهب منهم من لا يؤمن بنصف الحاكم أو بنصف القائد ، وحصر السلطة في نفسه ، ولم يترك لمثل الشعب إلا ظلاً لا يثنى ولا ينفع ، غيباً نظرت تنظر ديكتاتورية ثانية عنيفة ، ضمنت للشعب أن تقوده إلى أنهار من عمل مصنى ، وجداول آمال كان ينكرها إذا هجست بها شبه . . . وهل أحول من هذه الديكتاتورية التي نشأت في وطن نيتشه ؟ وكأني أجبر هذه الديكتاتورية تتحنى أثر تماثيل نيتشه في الاسطفاء والبيادة . . . كان نيتشه ييمر بفلسفة عنيفة انسانية ، يرحب « بالسورمان » أيما كان ، في الغرب أو في الشرق ، ولكن رجال شبه حوروا هذه التماثيل بعض التحوير ، غلبوا من فلسفة نيتشه فلسفة قومية ، يريدون أن يكون منهم « السورمان » أو قل يريدون أن تكون أمتهم « سورمان » بقية الأمم ؟ فهم يضطهدون للناطقين والناصر التي لا تؤمن بالروح الجرمانية . . . وويل غداً لكل ديكتاتورية لا تطلق جوع السيد